

تاريخ الحضارة العربية الإسلامية

بقلم : الدكتور علي أباحسين

الوثيقة - ١٤

التاريخ من الناحية اللغوية هو الإعلام بالوقت أو التوقيت أي زمن وقوع الحوادث فيقال (أرخت الكتاب إذا جعلت له تاريخاً أي وقته واتفقت الصحابة على ابتداء التاريخ من هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة وجعلوا أول السنة المحرم ويعتبر التاريخ بالليالي لأن الليل سابق النهار عند العرب . . . فتمسكوا بظهور الهلال وإنما يظهر بالليل فجعلوا ابتداء التاريخ وتاريخ كل شيء غايته ووقته الذي ينتهي إليه).

وقيل أن اشتقاق كلمة (تاريخ) سريانية وتعني الشهر أو الزمن، أو من كلمة (يرخ) أو (آرخو) البابلية، كما ذكر أن أصل الكلمة سامية من كلمة (ياريج) العبرية ومعناها (القمر) و (يرج) ومعناها (الشهر) فيصبح معناها تحديد الشهر.

أما كلمة (History) في اللغات الغربية فأول من أطلقها أبو التاريخ (هيرودوتس) اليوناني الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد فلما كتب كتابه أراد منه البحث والتحري ومعنى ذلك أن أول ما أشار إليه هيرودوتس هو البحث والتحري وسير الحوادث الماضية تلك التي تتعلق بفعاليات الإنسان بمختلف صورها ومن مراجعة اللغات الأجنبية نجد أن كلمة (قصة) أو (أسطورة) العربية مشابهة كلمة (History) إلى حد كبير فأحياناً من لفظ أو لفظين متقاربين ففي اللغة الإغريقية التي هي من أقدم اللغات التي سجلتها الحضارة تطلق على التاريخ وقصته لفظ (Istoporos) وفي اللغة الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية (Istoria) كما في اللغة الإنكليزية (History) وهكذا نجد أن هذه الكلمة متشابهة في اللغات الغربية ما عدا في اللغة الألمانية فتدعى (جشختا) (Geschichte) وهي مأخوذة من كلمة (Geschen) ومعناها (حدث) أو (وقع) وتعطي معنى حوادث .

مما سبق نستنتج أن كلمة (التاريخ) في اللغة العربية واللغات الأوروبية نستعملها في معاني ومفاهيم مختلفة قسم منها بعيد عن المعنى الاصطلاحي العلمي ونقصد به مجرى الحوادث الواقعة، وأحياناً نستعمل التاريخ لتعيين زمن الحوادث ونقدر في الحالة الأخيرة أن نجعل كلمة (Date) بمكان هذا المعنى ولكن هذا الاصطلاح العلمي غير صحيح .

وبدأ تأريخ التاريخ في العصور القديمة ولكن مفهومه العلمي أمر حديث بالنسبة إلى تفكير البشر . وقد ساهم كثير من المفكرين الذين ينتمون لشعوب مختلفة في وضع أسس عامة لموضوع التاريخ، فهو عند العرب بدأ في عهد المقدسي (المتوفى ٣٨٠هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) . وهناك أدلة على أن قسماً من مؤرخي العرب بحثوا في التاريخ بدليل ورود اقتباسات في مقدمة ابن

خلدون مثلاً وأن العرب فهموا التاريخ على الطريقة العلمية بالبحث والتحري لا سرد الحوادث فقط .

وبدأ التاريخ يأخذ مكانته العلمية ليصبح علماً منظماً في نهاية القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر، فأصبح التاريخ : (يعنى بوصف الوقائع الاجتماعية والطبيعية وتبيان الأزمان التي حدثت فيها مع ذكر العوامل التي أدت إلى وقوعها) ويقصد بالحوادث أو الوقائع الطبيعية تلك التي وقعت دون أن يكون للإنسان أثر في حدوثها كالآثار التي تحدثها الزلازل والبراكين والفيضانات . أما الحوادث أو الوقائع الاجتماعية فتدل على كل ما حدث نتيجة لأعمال الإنسان مدنية كانت أم عسكرية سواء أكان ذلك من ناحية الإنشاء والتزميم أم من ناحية الهدم والتدمير، ويتضمن هذا المعنى لكلمة تاريخ أن معرفة الإنسان لما وقع من الحوادث في جميع الأزمان والأمكنة لا تستطيع أن تستوعب الحوادث التاريخية كلها فمجال التاريخ حسب هذا التعريف واسع سعة الكون نفسه وأن ما يعرفه الإنسان من حوادثه أقل مما حدث فعلاً وجرياً مع هذا المنطق يصبح لكل شيء تاريخ فإن للكون تاريخ وللشمس تاريخ وللكرة الأرضية تاريخ وللحياة تاريخ ولكل نهر تاريخ وتاريخ للبرلمان وتاريخ للفيزياء وتاريخ للأدب العربي . . الخ .

وتستعمل كلمة تاريخ أحياناً لتعبر عن الآثار التي يتركها وقوع الحوادث على صفحة الطبيعة وفي ثنايا المجتمع كذلك التي يتركها حدوث الزلازل أو الأمطار أو الحروب وما شاكلها وهنا فإن معرفة الإنسان لجميع الوقائع التاريخية ليست مستحيلة عكس التعريف الأول للتاريخ .

وتستعمل كلمة التاريخ أحياناً (لتدل على ما استطاع الإنسان أن يعرفه من الحوادث الماضية طبيعية كانت أو اجتماعية) ولا يشترط أن تكون مدونة بل تشمل الآثار والرموز وبقايا آثار المعابد والكهوف والجسور والأبنية على

اختلاف أنواعها وهنا يصبح التاريخ بهذا المعنى أقل بكثير مما وقع فعلاً وأقل كذلك مما خلقه وقوع الحوادث الاجتماعية والطبيعية من آثار، ذلك لأن الآثار التي عفت في زمن ما، لا يمكن معرفتها، كما أن الآثار التي لم يستطع المؤرخ أن يصل إلى معرفتها على الرغم من وجودها لا تدخل حسب هذا التعريف ضمن التاريخ غير أنها يمكن أن تصبح جزءاً من التاريخ في أية لحظة من لحظات التاريخ إذا ما اهتدى إليها المؤرخون فالتاريخ بهذا المعنى يتسع مجاله باستمرار كلما اتسعت المعرفة التاريخية عند الإنسان .

أما رأي هيرودوتس اليوناني بالتاريخ فهو (التحقيق في الحوادث الماضية على أن يقوم المؤرخ نفسه بهذا التحقيق) فيسافر إلى الأماكن التي يريد دراستها من الناحية التاريخية وهذا ما حدا بهيرودوتس أن يقوم بأسفار كثيرة وطويلة بالنسبة للزمان والمكان الذي عاش فيه ليحقق بنفسه كثيراً من الحوادث التاريخية تمهيداً لتسجيلها بأسلوبه ولغته الخاصة . وبذا استند هيرودوتس على البحث ثم الإعلام والجوب أو التجوال .

أما من جاء بعد هيرودوتس من مؤرخي الإغريق فالتاريخ في نظرهم (ما توصل اليه البحث أو نتائج البحث) فالفرق أن هيرودوتس يهتم بالأسلوب أو الطريقة في البحث بينما الآخرون يهتمون بالموضوع أو المادة التاريخية .

ومن هنا انتقل معنى التاريخ إلى اللغات اللاتينية، وبعض اللغات الأوروبية الحديثة، فسمي هيرودوتس (أبو التاريخ) لأنهم اعتبروا التاريخ يعني جميع الحوادث التي دونها هيرودوتس بأسلوبه والتي وقعت نتيجة لأفعال الإنسان في مختلف صورها وتعدد مجالاتها . أما الحوادث الطبيعية فتدخل تحت علم الفلك أو الجيولوجي أو علم الحياة .

هكذا أصبح التاريخ بمعناه الاجتماعي ينقسم إلى أقسام، حسب زمانه، فهناك تاريخ قديم ومتوسط وحديث، ويختلف التقسيم باختلاف المؤرخين،

وأحياناً يقسمونه (حسب موضوعه) كتاريخ سياسي وثقافي وعسكري، وأحياناً يقسمونه (حسب الأمم) كتاريخ العرب وتاريخ الفرنسيين ونحوه وكل قسم يقسم إلى أقسام أخرى، فتاريخ العرب يقسم إلى تاريخ سياسي، أو ثقافي . . . الخ . وكلما اتسعت المعرفة التاريخية وتوغل الاختصاص زاد عدد تلك الأقسام، واليوم أصبح التاريخ بمعناه الاجتماعي أكثر شيوعاً وإن كانت التعاريف الأخرى متبعة أحياناً .

تدوين التاريخ :

يدون المؤرخون حوادث التاريخ بعد وقوعها بزمان طويل أو قصير وكلما بعد الزمن أو المسافة بين وقوع الحادثة التاريخية وبين تدوينها أصبح من الصعب توخي الدقة في تسجيلها فالمؤرخ في الغالب هو الذي يدون الحوادث القريبة منه في الزمان أو المكان بشكل مباشر من المحتمل أن يكون أكثر دقة من المؤرخ الذي يدون حوادث بعيدة عنه في الزمان والمكان، مع توخي الدقة العلمية خاصة في الحوادث التاريخية التي تتعلق بعقائده الدينية أو المذهبية أو السياسية فيجوز أن يتميز بطريقة لا شعورية . وأحياناً قد لا يستطيع المؤرخ أن يستوعب جميع التفاصيل والملابسات خاصة تلك التي تتعلق بالسلطة الحاكمة، إذا ما كان الضغط الفكري شديداً، وهناك من المؤرخين من يفتقر إلى النزاهة أو الدقة، أو كليهما .

ثم واجه بعض المؤرخين مشكلة (تفسير التاريخ) فمنهم من يجعل العامل الاقتصادي، هو الذي يسير الحوادث التاريخية، وآخرون يفسرون وقوعها للعامل الاجتماعي أو الجغرافي أو الروحي أو غيره . ومعظم الباحثين يجعلون التاريخ علماً لأنه يتبع العلم في الوصول إلى الحقائق التاريخية . وهذه تعتمد على الملاحظة والبحث والنقد فالاستنتاج، لذا فإن للتاريخ منهجاً أو طريقة

للبحث يصل بواسطتها الباحث إلى الحقيقة التاريخية وهو لا يعتمد على التجربة لاستحالة ذلك في التاريخ بينما يمكن ذلك في العلوم الطبيعية، مثلاً، وأن مادة الباحث في التاريخ أو مصادره إما مدونة كالسجلات والوثائق والمخطوطات والكتب أو غير مكتوبة كالآثار التي خلفها الإنسان أو التي لها علاقة كعظام حيواناته ونباتاته وآثار المناخ والسطح، وابن خلدون يعتبر التاريخ (فن) إلا أن فيه بحث ونقد ولذا يخضع لخطوات البحث العلمي وما دام كذلك، لذا يمكن اعتباره (علماً)، فللتاريخ في صورته المثالية وجهان : فهو دراسة علمية فيه التحري والبحث عن حقائق الماضي ويتقصى أصول الحاضر ويحلل أسباب هذه الحقائق والأصول ويحلل نتائجها ويستخلص منها النظريات العامة والمبادئ التي يمكن أن تصدق على أمثالها ثم يتحرى الأمانة في تقليب المشكلات على كل وجوهاً ويناقش وجهات النظر المختلفة فيها ثم ينبه إلى مواضع الترجيح والتأكيد مع مواطن الشك والاحتمال فيها .

إلا أن التاريخ يختلف عن العلوم البحتة في التطبيق لأنه لا يخضع للتطبيق ولا التحكم في مفردات البحث ولا يستحضرها جميعها ليحقق الفرضيات تحقيقاً مباشراً قبل إصدار الحكم عليها خاصة وأن الحوادث تتعلق بالإنسان ومشاعره ونزعاته كما أن التاريخ لا يزود المجتمع بفوائد علمية جديدة وإن أضاف فوائد روحية وعقلية ووجدانية والتاريخ من وجهة أخرى فرع من فروع الدراسات الأدبية والفنية فهو ينسق حقائق الماضي ويصوغ أخباره وتفسيراته في أسلوب معبر مستعيناً بالوصف للحوادث وصفاً حياً بشرط أن لا يطنى الأسلوب الأدبي على جوهر التاريخ .

وما من شك أن التاريخ يستعين بما قدمه له علم الآثار وعلم الأنثروبولوجي وعلم السلالات البشرية وعلم الاجتماع وعلم البيئات وما سواها وهنا تبرز ناحية التخصص فما من أحد يستطيع أن يكتب عن تاريخ العالم كله فلا بد من

أن يتخصص في تاريخ فترة قصيرة أو في ناحية اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية شريطة أن يتصف المؤرخ بالاستعداد الشخصي والإمام بما وسعه من العلوم والمعارف واللغات والفنون المختلفة فالمنهج التاريخي يستخدم للحصول على أنواع من المعرفة عن طريق الماضي بقصد دراسة وتحليل بعض المشكلات الإنسانية الحاضرة ذلك لأننا كثيراً ما يصعب علينا فهم الحاضر دون الرجوع للماضي، فملاحظة الظواهر والأحداث اليوم لا تكفي الباحث للوصول إلى الحقيقة التاريخية إذ يجب دراسة تاريخ الماضي لهذه الظواهر والحوادث لأنه في الماضي بذور الحاضر . وهنا يعني أن على المنهج التاريخي دراسة الحوادث والوقائع الماضية وتحليل حقائق المشكلات الإنسانية التي تظهر في الوقت الحاضر لذا أصبح التاريخ ضرورة في فهم الحاضر فإذا أردنا مثلاً دراسة أي مجتمع معاصر لابد من دراسة ماضيه وحينئذ نحتاج إلى المنهج التاريخي، الذي يغوص بنا إلى أعماق الماضي للوصول إلى الحاضر .

والمنهج التاريخي يدفعنا إلى ضرورة الاستفادة من مصادر كثيرة منها :

١ - الوثائق : وهي إما مكتوبة كالمخطوطات والمذكرات والاتفاقيات والقوانين والصحف وغيرها أو ما تناقله الخلف عن السلف من قصص وأساطير وحكم وأمثال وشعر وأغاني شعبية وطقوس، أو أن تكون مصورة كالرسوم والتماثيل المنحوتة والصور والنقود ونحوها .

٢ - ما كتب من بحوث وكتب .

٣ - شهود العيان الذين لاحظوا الحوادث أو الوقائع ومصادر أخرى .

ولابد للمؤرخ من مؤهلات منها : مكتسبة بالتمرين وتدخل تحت العلوم المساعدة وأخرى تكون استعدادات أو ميولاً شخصية للمؤرخ .

فأما المؤهلات المكتسبة : فهي كل العلوم الموصلة للتاريخ كأن يكون المؤرخ واسع الثقافة عارفاً بالعلوم المتصلة مباشرة بدراسة التاريخ وبالدرجة

الأولى علم الاجتماع الذي يدرس المؤسسات البشرية ببيئة مقارنة ومنه يستفيد التاريخ، وأشار ابن خلدون وسبنسر الإنجليزي إلى جعل التاريخ علماً خاصاً يبحث في تطور الحياة البشرية . وعلم الاقتصاد له مساس بالتاريخ إذ له الأثر العظيم في سير الحوادث التاريخية وعلم الجغرافيا لأن التاريخ يبحث عن أحوال الإنسان في الزمان والمكان والجغرافيا تعطينا تفصيلات عن البيئة الطبيعية التي تسير الحوادث البشرية فيها . وعلم الأنثروبولوجي (الجنس البشري) ومنه يمكن الاستفادة من نظريات هذا العلم في تفسير الحوادث التاريخية إذ أنه يدرس البيئات ويستخرج قوانين ونظريات ويزودنا بالشعبيات كالأغاني والأساطير والخرافات وغيرها وعلم النفس يزودنا بدراسة الأساطير ويفسرهما . أما علم الآثار فهو أكثر العلوم مساساً بالتاريخ كالأثار من العظام والآلات والمنمنمات (علم المسكوكات) وتفيدنا بما عليها من صور وأسماء وسنين وحتى المادة المصنوعة منها النقود وكذلك الشارات فنعرف السلالات الحاكمة والأحوال الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية أحياناً بالإضافة إلى ضبط السنين .

وعلم قراءة الخطوط : ويفيد المؤرخ في العصور التي سبقت اختراع الطباعة ومنها الخطوط المنقوشة على الحجر . ويلحق به المواد التي تكتب فيها كالورق أو البردي أو الحجر أو العظام وكذلك الحبر . كل هذا فإن دراسته تتضمن إلى حد كبير التزوير والختوم تفيدنا على الأرجح لمعرفة التزوير وزمن الوثائق ومثلها الشعارات والإشارات على الدروع وشارات الجند والفرق العسكرية وتفيد المؤرخ في تقدير الزمن إلى حد ما . أما اللغات فهي ضرورية لفهم النصوص التاريخية ومقارنتها للوصول إلى ما يقرب الباحث للحقيقة التاريخية وأخيراً المصادر المكتوبة كالكتب والحواليات والسير والمذكرات اليومية وشجرات النسب والرسائل والتصريحات والخطب والمنشورات والكراسات الرسمية وضبط الكلام والصحف وهناك مصادر غير مكتوبة كالأمثلة والقصص والأشعار والملاحم

المحفظة والنتاج الفني كالتماثيل والصور التاريخية والميداليات ثم الأنظمة الاجتماعية والعقود التجارية وعقود الزواج وسجلات الضرائب ووثائق التعيين والعزل والشرائع وغيرها .

وحتى العلوم الطبيعية مهمة في كتابة التاريخ .

أما الاستعدادات أو الميول الشخصية للمؤرخ فلا بد أن (يتحلى بالروح العلمية) كأن يتجرد عن كل شيء . وأن يصبر على البحث وأن يكون أميناً ومخلصاً للموضوع وألا يتزلف لصاحب السلطان أو غيره وهذا ما وجدناه عند معظم مؤرخي العرب فإنهم لم يتخذوا كتابة التاريخ حرفة يعيشون منها فلهم موارد غيرها فلم يتزلفوا للخلفاء وغيرهم .

وأن يكون عنده روح للنقد فلا يسلم للروايات بل يشك وينقدها والشك أساس اليقين، وعدم التحيز، وأن يتحرر من الميول والأهواء وأن ينصب من نفسه ناقداً لنفسه العقل المنظم مهم في كتابة التاريخ — فإن الحضارة أساسها التنظيم والخيال العلمي الواسع كأن يتقصص الشخص الذي يبحث عنه أو العصر موضوع البحث .

مفهوم الحضارة :

الحضارة لغةً، هي الإقامة في الحضر . يقال فلان حضري أي من أهل الحاضرة وفلان بدوي، أي من أهل البادية، وفي لسان العرب: (الحاضرة خلاف البادية وهي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الآباء التي يكون لهم فيها قرار . . .) ثم أريد بها ما يتبع الإقامة في الحضر من تعاون وتبادل للأفكار والآراء وما ينتج عن ذلك من معلومات ونظم تتصل بتقدم الإنسان ورقيه .

ويعرف (ابن خلدون) الحضارة بأنها أحوال إضافية زائدة على الضرورة من أحوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفاه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوت غير منحصر .

ويراها (ول ديورانت) بأنها نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي .

فالحضارة: مدى ما وصلت إليه أمة من الأمم في نواحي نشاطها الفكري .

أصول عناصر الحضارة :

- ١ - الأنظمة السياسية .
- ٢ - الموارد الاقتصادية .
- ٣ - التقاليد المختلفة .
- ٤ - متابعة العلوم والفنون .

أما العوامل المؤثرة في الحضارة فهي :

- ١ - عوامل جيولوجية : كاحتمال البراكين والزلازل .
- ٢ - عوامل جغرافية : كالزحف الجليدي أو البرد القارس أو الحر الشديد وكمية المطر أو الجفاف ونوع التربة والثروة المعدنية والموقع الجغرافي .
- ٣ - عوامل خلقية : تحدد علاقة الأفراد .
- ٤ - عوامل اقتصادية : كالزراعة والصناعة والتجارة . فالزراعة أدت إلى الاستقرار وبناء المساكن ثم المدن والمعابد والمدارس واختراع أدوات ثم تصنيع الإنتاج وهكذا .

٥ - عوامل نفسية : تبدأ الحضارة حيث ينتهي القلق والاضطراب .

٦ - عوامل دينية

٧ - عوامل تربوية : لا يتم الصانع صنعته أو الزارع زراعته إلا إذا كان على قدر عظيم من الصبر والعزيمة والعلم . ومن هذب بالعلم والحكمة كان أصح فهما واستفادة .

مظاهر الحضارة :

تشمل جميع أوجه النشاطات الإنسانية المادية والفكرية وتبدأ في منتجات الإنسان المادية كالأدوات التي يصنعها والأمتعة التي ينتفع بها والسلع التي يتبادلها وفيما يبينه من مصانع ويشيده من عمائر وتشمل كذلك الشرائع والأحكام والأجهزة الإدارية والمؤسسات، وتتمثل في أخلاق الإنسان وسلوكه وفوائله وما تجود به قريحته في مجال الأدب والفن والعلم وكذلك معتقداته الدينية ومذاهبه الفلسفية وقيمه الخلقية فالحضارة كالحياة عناصرها متداخلة متشابكة تأبى الفصل والتقسيم، فمثلاً تبدأ بالأدوات الحجرية كالدولاب والمطرقة والسندان إلى الرجل البخاري إلى المحرك الكهربائي إلى الآلة الإلكترونية الحاسبة التي تضاهي دماغ الإنسان، ومثلها أدوات الزراعة ويضاف لها القدرة الفنية أو المهارة التكنيكية التي يبدو فيها الإنسان صانعاً في الطبيعة مستخرجاً مركباً مكيفاً مخترعاً مستكشفاً ومع المعرفة الناشئة عن التجربة والاختبار لذا تكون القدرة الفنية الحاصلة في أية حضارة تكون بمقدار ما تتمتع به تلك الحضارة من أدوات الإنتاج .

وكلما كانت الحضارة عالمية في رسالتها، إنسانية في نزعتها، روحية خلقية في اتجاهاتها، واقعية في مبادئها، كانت أخلد في التاريخ وأبقى على

الزمن وأجدر بالتكريم لأنها بذلك تسعد الإنسانية وتبعدها عن المخاوف والآلام كالحضارة الإسلامية .

الحضارة . . والمدنية . . والثقافة

هذه الألفاظ تتداخل في مدلولاتها إلى حد كبير ويصعب إيجاد حدود قاطعة بين الواحد منها والآخر، ومع ذلك يمكن تعريف حضارة شعب ما . بأنها (أفضل ما تضمنه وعبر عنه نشاط هذا الشعب من النواحي الفكرية والمادية لخدمة مطالب أهله ومطالب عصره) يستوي في ذلك إن كان هذا النشاط راقياً من وجهة النظر الحديثة، أم لم يكن، فللشعوب البدائية في مجاهل القارات حضارتها المتواضعة التي تناسب بيئتها وتفي إلى حد ما بمطالب أهلها كما أن للشعوب المتطورة في العالم الحديث حضارتها الواسعة، وللعصور الحجرية القديمة حضارتها التي تناسب أزمانها كذلك، وهي متطورة عن حضارات سبقتها وقامت على أساسها .

ويشترك مدلول لفظ (المدنية) مع مدلول لفظ (الحضارة) في بعض نواحيه ولكن المدنية أقل شمولاً من مفهوم الحضارة إذ ينصب مفهوم المدنية على الشعوب الراقية دون المتخلفة وعلى النواحي المادية أكثر من النواحي الفكرية والمعنوية فإذا تحدثنا عن مدنية الغرب، مثلاً، عنيينا بذلك اختراعاته الحديثة ووسائل حياة أهله أكثر مما يعني ديانته وأخلاقياته .

أما لفظ (الثقافة) (Culture) أو تمدن أو تربية فهو أكثر تحديداً من التعبيرات الأخرى إذ ينصب على النواحي الفكرية والروحية أكثر من غيرها والتاريخ يستعين عادة بأعمال الناس وردود الفعل عليها ووزنها بميزان سليم، لأن أعمالهم ترجمان عن أفكارهم .

أصول الحضارة الإسلامية

أما الحضارة والنظم الإسلامية موضوع البحث فهي تستند على القرآن الكريم ثم سنة النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير بالدرجة الأولى ويدخل عامل الاجتهاد والإجماع والقياس بالدرجة الثانية، ثم ما ابتكروه في فنون المعرفة، وأخيراً ما ورثه المسلمون من العرب والأمم الأخرى من تراث .

نظام الحكم في عهد الرسول ﷺ

باستقرار الرسول ﷺ في (يثرب) رد إليها اسمها القديم وهو (المدينة) وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وعقد معاهدة مع يهود المدينة وبذلك بدأت نواة الدولة الإسلامية وأصبح الرسول ﷺ مرجعها في كل ما يمسها فهو يتولى تعليمها ورياستها وقيادتها والفصل في كل ما يعرض لها، يقوم بكل هذه الواجبات بنفسه ما وسعه ذلك ويستعين بمن حوله فيما لا طاقة له به . وكان عمله مؤسساً على قاعدتين متميزتين التمييز كله، أولاهما إتباع ما نزل به القرآن وهذا ينفذه الرسول ﷺ في كل فرد من أفراد دولته على السواء لا يقبل فيه شفاعة ولا مناقشة ولا يعبأ بمطابقة لتقاليد العرب أو بمخالفته لها . والقاعدة الثانية الاجتهاد فيما لم يرد له حكم في القرآن . ولم يكن الرسول ﷺ يخفي عن أصحابه ما يسير فيه بمقتضى الوحي وما يسير فيه بمقتضى الاجتهاد بل كان شديد الحرص على الفصل بينهما في الحرب والسلام على السواء .

وفي حالة الاجتهاد كان ﷺ يبذل كل ما في وسعه لبلوغ هدفه وهو مصلحة الجماعة ويستشير من عرفوا بجودة الرأي وسعة العلم من أصحابه ومن أمثلة ذلك أنه اختار لموقف المسلمين في معركة بدر الكبرى أدنى ماء إلى المدينة ثم أخذ بمشورة الحباب بن منذر الخزرجي أدنى ماء من القوم .

وكان الرسول ﷺ قد أخذ برأي الصحابي سلمان الفارسي في حفر الخندق (. .) من أن تتسع دائرة عمله بازدياد انتشار الإسلام وبدأ يكثر أعوانه في الحكم وتظهر - بالتالي بذرة لكل وزارة من وزارات الدول المتحضرة في كل عصر وأوان - فالرسول ﷺ المعلم الأول في دولته وهو يرسل إلى كل قبيلة تدخل في الإسلام معلماً يفقهها في الدين، وأن أول ما أمر به الدين القراءة وأن الله علم بالقلم - علم الإنسان ما لم يعلم وتلك كانت بذور وزارة التربية والتعليم والمعارف .

أما بذور وزارة الداخلية فنجدها في تكليف سعد بن أبي وقاص بأن يعس بالليل، وفي استعانته على ضبط البدو بقيد أسمائهم وبيان أحوالهم وفي استعانته في الحراسة بسعد بن معاذ وبأبي أيوب الأنصاري . ومن قوله ﷺ في ذلك (اللهم احفظ أبا أيوب، كما بات يحفظني) .

ومن بذور وزارة العدل أنه ﷺ كان القاضي الأول وكان يرسل القضاة إلى ما بعد عن المدينة، بعد أن يختبر مبلغ معرفتهم بالقضاء، اختار معاذ بن جبل قاضياً على اليمن وعقد له امتحاناً قبل إرساله واجتاز الامتحان بنجاح فقال ﷺ : (الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضاه رسول الله) .

ومن بذور وزارة المالية أنه ﷺ كان يستعين بأبي بن كعب وكان يقرر لكل موظف راتباً معيناً، فعين (عتاب بن أسيد) والياً على مكة وجعل راتبه درهماً كل يوم فقال (لقد رزقني رسول الله درهماً كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد) .

ومن بذرة وزارة الخارجية أنه ﷺ عين لكتابة سرّه زيد بن ثابت الأنصاري وقال له بأنها (تأتيني كتب لا أحب أن يقرأها كل أحد) وأمره أن يتعلم اللغات الأجنبية التي يتصل أهلها بالمسلمين فقد كان زيد كاتب سره وترجمانه للفرسية والرومية والقبطية والحبشية والعبرية . وكذلك حذيفة بن اليمان .

وكان يستعين في كتابة العهود وشروط الصلح بعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه . ولما أراد الكتابة إلى الملوك أخبره أصحابه أن الروم لن يقرأوا كتابه إلا إذا كان مختوماً فصنع له خاتماً من فضة نقشه (محمد رسول الله)، وفي رواية خاتم من حديد عليه فضة .

الجهاد :

إن من أسباب الجهاد تقييد حرية الدعوة إلى الإسلام من قبل المشركين وحصرها في أضيق نطاق يمكن توصلًا إلى القضاء عليها، فكان هذا التضييق وذلك الاضطهاد مما دفع المسلمين الأوائل للدفاع عن الدعوة وقد تمثل ذلك الاضطهاد بنهب أموال المسلمين في مكة بعد إخراجهم من ديارهم ولاحقهم إلى المدينة يحاربونهم ثم (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا) وحدد التصريح بالقتال دفاعاً عن الحرية عامة وحرية نشر الإسلام خاصة فقال تعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) وهذا هو الإذن بالحرب الدفاعية .

إدارة الأقاليم :

وضع الرسول ﷺ نواة النظم الإدارية فقد حل الولاء الديني محل الولاء للقبيلة وكان ﷺ يبعث إلى القبائل التي دخلت الإسلام من يقرئها القرآن،

وينيب عمالاً على القبائل والمدن، وكانوا يقومون بإمامة الصلاة وجمع الصدقات كما ينيب عنه قائداً يقود سرية من السرايا ويختار عماله ممن اشتهروا بالتقوى والعلم في الدين وقد فرض لوالي مكة (عتاب بن أسيد) درهماً في كل يوم وهو أول راتب من الرواتب لعماله، وكان له كتاب يكتبون المعاهدات وأموال الصدقات والمعاملات والرسائل ونحوه . هذا الجهاز الإداري في عهد الرسول ﷺ قد توسع في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين فكان تقسيم الدولة الإسلامية من الناحية الإدارية في عهد الخلفاء الراشدين إلى ثمانى ولايات وهي : مكة والمدينة والشام والجزيرة (مابين النهرين) والبصرة والكوفة ومصر وفلسطين . وجعل لكل ولاية حاكمها الخاص . وكان يولي النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده، غالباً ما يولون القائد الفاتح لبلد قبل خروجه لفتحه . وامتاز الحكم الإسلامي بكثير من الإصلاحات والتنظيمات الجديدة في إدارة البلاد على أثر توسع رقعة الدولة الإسلامية توسعاً كبيراً، وكان لكل ولاية مقر دائم للحكومة يسمى بدار الإمارة لها قاضيهَا وعاملها ومأمور الضرائب أو الخراج . وفي عهد الأمويين، صار عدد الولايات أربع عشرة ولاية كولاية العراق وفارس وتشمل من العراق إلى بلاد السند وكان الوالي يعين من قبله عمالاً يديرون الأقاليم والمقاطعات التي كانت مستقلة عن العاصمة أحياناً بسبب المواصلات الصعبة في ذلك الوقت .

الوزارة :

مشتقة من وَزَرَ (بكسر الواو وسكون الزاي) وهو الثقل لأن الوزير يحمل عن الملك أثقاله ، وقِيلَ من وَزَرَ (بفتح الواو والزاي) وهو الملجأ من قوله تعالى (كلا

لا وزر) أي لا ملجأ . فسمي بذلك لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته . وقيل من الأزر، وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر، والوزارة على ضربين هما : وزارة تفويض ووزارة تنفيذ والفرق بينهما أنه يجوز لوزير التفويض (النظر في المظالم) (وتولية الولاة) (وتسيير الجيوش) (وصرف الأموال) وكلها لا تجوز لوزير التنفيذ . . وينعزل الوزير بموت الخليفة . وقيل أن أصل هذه المرتبة فارسية اتخذها المسلمون في عهد الدولة العباسية، وعرف بنو أمية الكاتب الذي تطور منصبه إلى الوزير وإن ورد ذكر الوزير في القرآن الكريم .

ولكن عظمت مرتبة الوزير وأضيف له النظر في ديوان الحسابات والمكاتبات ثم أصبحت شاملة للسيف والقلم، وأول وزراء العباسيين (أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال) وزير أبو العباس السفاح، وأبو سلمة هو أول من سمي وزيراً في التاريخ الإسلامي وأطلق عليه وزير آل محمد . . وقوي منصب الوزارة في أيام البرامكة قبل نكبتهم في عهد هارون الرشيد . وبضعف منصب الخلافة ضعف منصب الوزارة واستبد الولاة وأصبحت الوزارة كالخلافة اسماً بلا مسمى فأسقطوها وأبدلوها (بإمرة الأمراء) أو بالأحرى عاد الوزير كاتباً موكلاً بالأموال وأصبح وزيراً شخصياً للخليفة العباسي المستضعف وانتقلت سلطاته لأمير الأمراء . وبعد أن ضعف نفوذ الوزير كما نجد في عهد الخليفة الراضي العباسي ٣٢٢هـ عين خمسة وزراء واحداً بعد الآخر ثم عين أكبر القواد في أيامه وهو (ابن مرائق) وكان والياً على واسط والبصرة فاستدعاه وسلمه مقاليد الأمير ولقبه (أمير الأمراء) ومنح الخليفة المقتدر هذا اللقب قبله إلى مولاه مؤنس الخادم، ثم انتقل إلى الأتراك السلاجقة فاستبدوا بمقاليد الأمور بينما تقاعد الخلفاء عن أمور الدولة، ثم أبدل اللقب إلى (السلطان) في أيام محمود الغزنوي وهو أول سلطان في التاريخ الإسلامي في أواخر القرن الرابع الهجري بدلا من أمير الأمراء ثم أصبح لقب السلطان للسلاجقة والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وكان منصب الوزارة في عهد الفاطميين بمصر (ليعقوب بن كلس) وزير العزيز

بالله وفي الدولة الأموية في الأندلس كان الوزير للمشاورة والمعاونة فكان يسمى حاجباً ثم سمي وزيراً وكانت وظيفته متوارثة شأن البرامكة .

الدواوين :

امتاز عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكثير من التنظيمات الجديدة في إدارة البلاد الإسلامية نتيجة لاتساع رقعتها وظهور حاجات جديدة ومتنوعة لسكان البلاد المفتوحة ذات الحضارات كبلاد فارس وبلاد الشام، التي كانت تحت حكم الرومان .

ولأول مرة في التاريخ الإسلامي أنشئت الدواوين في عهد عمر بن الخطاب في ٢٠هـ (والدواوين = جمع ديوان وهي كلمة فارسية معناها السجل أو دفتر) وقد أطلق اسم الديوان من باب المجاز على المكان الذي يحفظ فيه الديوان - أي يحفظ فيه سجل الدولة . وذلك بإشارة من أحد مرآزية (حافظ الحدود) في بلاد الفرس . وكان متبعاً في الدولة الفارسية . وإن قيل أن سبب تدوين الديوان حين قدم أبو هريرة بمال كثير من البحرين فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ماذا جئت به قال خمسمائة ألف درهم فصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس قد جاءنا مال كثير فإن شئتم كلناه كيلاً وإن شئتم عددناه عدأ فقالوا يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديواناً لهم فقال دونوا الدواوين .

ولما سأل عمر رضي الله عنه أحد الفرس واسمه (الفيروزان) عن تنظيم الدواوين وفسر له ذلك فوضع عمر الديوان واشتمل على أسماء الجند وما يخص كلاً منهم من العطاء وسمي (ديوان الجند) وديواناً آخر للخراج أو الجباية بتدوين ما يرد إلى بيت المال وما فرض لكل مسلم من العطاء حسب دخوله وخدمته للإسلام

وقرأته من النبي ﷺ، وعين كاتباً نيابة عنه يتولى ضبط الديوان وسمي (ديوان الخراج) ولما كثرت الأموال أمر عمر بإنشاء خزانة أو داراً سماها (بيت المال) وإن ذكر أن أبا بكر ﷺ كان في عهده بيت مال إلا أن إنشائه كان في عهد عمر على الأرجح .

الدواوين في عهد الأمويين :

تعددت الدواوين في العصر الأموي نتيجة لتوسع الفتوح في بلاد أفريقية والسند وبلاد ما وراء النهر وقد انحصرت الأعمال في عهد بني أمية في أربعة دواوين أو إدارات رئيسية هي :

أولاً : ديوان الخراج .

ثانياً - ديوان الرسائل ، وكان لصاحبه الإشراف على الولايات والرسائل التي ترد من الولاة .

ثالثاً - ديوان المستغلات ، أو الإيرادات المتنوعة .

رابعاً - ديوان الخاتم ، وقد أنشأه معاوية بن أبي سفيان وكان من أكبر دواوين الحكومة وكان به موظفون مهمتهم نسخ أوامر الخليفة وإيداع نسخ منها في هذا الديوان بعد أن تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختتم بخاتم صاحب هذا الديوان كما هو الحال اليوم في نسخة الأرشيف والسجلات . وبجانب هذه الدواوين الأربعة مصالح أخرى كمصلحة خاصة لصرف نفقات الشرطة وأخرى لتنظيم وصرف نفقات الجند .

ويرجع السبب في إنشاء هذا الديوان إلى أن معاوية أحال رجلاً على زياد بن أبيه عامله على العراق بمائة ألف درهم فمضى ذلك الرجل وقرأ الكتاب وكانت توقعاتهم غير مختومة فجعل المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه إلى

معاوية أنكر هذا العدد وقال ما وهبته إلا مائة ألف ثم استعاد المائة ألف من الرجل ووضع ديوان الخاتم فصارت التوقيعات تصدر مختومة لا يعلم أحد ما تشمل عليه ولا هو يستطيع أن يغيرها في شيء وليس معنى ذلك أن معاوية اخترع هذا التنظيم اختراعاً فإن ختم الرسائل والصكوك كان موجوداً قبل ذلك، فإن النبي ﷺ لما أراد أن يكتب إلى هرقل إمبراطور الروم قيل له أن العجم لا يقبلون كتاباً إلا إذا كان مختوماً فاتخذ الرسول خاتمه من فضة ونقش فيه (محمد رسول الله) ثم ختم به الأوامر والرسائل الرسمية لأبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم إلى أن سقط من يد عثمان في بئر أريس فصنع آخر مثله .

تعريب الدواوين :

ارتقى نظام الدواوين في عهد عبد الملك بن مروان وكان من سياسته استعمال اللغتين اليونانية والفارسية في الدواوين وكانت السجلات في أوائل عهد عبد الملك تكتب باليونانية في الشام وبالفارسية في فارس فأمر بتعريبها وكذلك ألغى استيراد السكة (العملة النقود) المسكوكة في الدولة الرومانية .

ثم سار ولادة عبد الملك ومن خلفه على الحكم فيما بعد على سياسته في تعريب الدواوين والحقيقة أنها كانت تستعمل اللغة العربية، بجانب اللغات الرسمية المحلية في البلاد المفتوحة إذ يقول الجهشيارى في كتابه (الوزراء والكتاب) ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان أحدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم وهذا الذي كان من أمر عمر، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية . وكان بالشام مثل ذلك أحدهما بالرومية والآخر بالعربية فجرى الأمر على ذلك إلى أيام عبد الملك بن مروان . والمقصود من الديوان الأول هو سجل الجنود وأسماء أهل القبائل والأسر العربية ومن الثاني ديوان الخراج أو وزارة المالية في

تعبيرنا الحديث . وكان الرجل القائم بديوان خراج الشام أيام معاوية هو (سرحون بن المنصور السرياني) ثم ابنه المنصور والذي نقل ديوان الشام من السريانية أو الرومية إلى العربية هو (سليمان بن سعيد) .

أما في العراق فيعود الفضل في نقل دواوينها من الفارسية إلى العربية إلى (صالح بن عبد الرحمن) كاتب الحجاج وكان يشغل تحت إمرة (راذان فروخ) الفارسي رئيس ديوان الخراج، ولما كان صالح بن عبد الرحمن يجيد الفارسية والعربية فقد نقل بعض السجلات إلى العربية متحدياً راذان الذي قال لأصحابه من الفرس التمسوا مسكناً غير هذا على حد قول الجهمشياري ولما علم الحجاج بذلك أمر صالح بنقل الديوان إلى العربية وتم ذلك في ٧٨هـ . كما نقلت الدواوين في مصر إلى العربية في ٨٧هـ في عهد الوليد بن عبد الملك وكانت قبل ذلك باللغة اليونانية وهي لغة السجلات الرسمية .

وكان لتعريب الدواوين أثر مزدوج من الناحيتين السياسية والأدبية فقد أصبحت لغة الدواوين في أرجاء الدولة الإسلامية هي اللغة العربية مما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة من اليونانيين والسريانيين والفرس الذين كانوا يتقلدون مناصب إدارة هذه الدواوين، ومن الناحية الأدبية فقد أصبحت اللغة العربية لغة التدوين فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية، وابتدأت تظهر طبقة الكتاب المسلمين من ذلك الوقت .

ولما آل الأمر لبني العباس واتسعت إدارة الدولة استناب الخلفاء عنهم من يقوم مقامهم بمباشرة الأعمال، فاستحدثوا: الوزارة والحسبة وتفرعت مناصبهما ثم ظهر ديوان الطراز، وديوان الترتيب، وديوان العزيز، وديوان الزمام، وديوان الإقطاع، وديوان المعاون .

وتفرع من ديوان الجند ديوان الأساطيل وديوان الثغور، ثم ديوان الرسائل والإنشاء .

وتفرع من بيت المال فروع منها لأموال الصدقات ولأموال المظالم ولأموال الورثة .
وتفرع من القضاة ديوان النظر في المظالم والحسبة والشرطة .

البريد :

قال صاحب الفخري: (البريد أن يجعل خيل مضمرات في عدة أماكن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان فيها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى يصل بسرعة .
وأما معنى البريد لغة (فالبريد اثنا عشر ميلاً، وأظن أن الغاية التي كانوا قدروها بين بريد وبريد هي هذا القدر) .

وقيل أن لفظ (البريد) عربي معناه الرسول، وقيل أنه فارسي معرب من (بريده دم) ومعناه محذوف الذنب لأن الفرس كانوا يحذفون ذنب بغل البريد ليمتاز من غيره من الدواب . ورأى آخرون أنه من أصل لاتيني مأخوذ من كلمة Veredus فريديس وتعني الخيل .

وكان نظام البريد معروفاً لدى الفرس والرومان كما عرفه المسلمون منذ نشأة الدولة الإسلامية فقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: "إذا بردتم بريداً فاجعلوه حسن الوجه، حسن الاسم"، وقد ذكر المؤرخون أن المسلمين بينما كانوا يقاتلون الروم في اليرموك جاء البريد يحمل نبأ وفاة أبي بكر وتولية عمر رضي الله عنه وعزل خالد بن الوليد عن القيادة وتعيين أبي عبيدة مكانه .

ونظراً لاتساع رقعة الدولة في عهد بني أمية وإطلال العرب المسلمين على كثير من النظم السائدة في الدولة البيزنطية والتي كانت في دولة الفرس اهتم معاوية الأول بتنظيم البريد لتصل إليه الأخبار من جميع أنحاء البلاد ولكن أمر البريد أحكم ونظم في عهد عبد الملك بن مروان حتى أصبح أداة هامة في إدارة

شئون الدولة وقد اثر عنه أنه قال لأحد رجاله : "وليتك ما حضر ببالي إلا أربعة، المؤذن فإنه داعي الله فلا حجاب عليه، وطارق الليل نشر ما أتى به ولو وجد خيراً لنام، والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة" .

وفي العصر العباسي حظي البريد بعناية فائقة من قبل الخلفاء فأدخلت تحسينات عديدة من الناحية التنظيمية والإدارية جعلت الخليفة يستطيع الإلمام بأحوال الدولة بأسرع وقت ممكن، فقد أنشئ في عاصمة كل قطر مركز للبريد يرتبط بالمركز الرئيسي في العاصمة عن طريق محطات البريد في الطرق الرئيسية بواسطة الدواب المخصصة لهذا الغرض فكانت الخيل والبغال في فارس والجمال في الشام والجزيرة العربية وعلى مسافات محدودة . كما كان في مركز البريد في بغداد لوائح تدل على الخطوط التي تخترق الدولة وتظهر محطاتها وأبعادها وعلى هذه اللوائح وضعت أسس كتب الجغرافيا فيما بعد وقد بلغ من انتظام البريد أن كان صاحبه يوافي أبا جعفر المنصور بالأخبار مرتين في اليوم . .

كانت مهمة البريد في الأصل إيصال الأخبار إلى الخليفة من عماله على الأقاليم ثم توسعوا في ذلك حتى أصبح يقوم بمراقبة الولاة والعمال ونقل أخبارهم إلى الخليفة ونوع معاملتهم للرعية ويطلعهم على كل ما يجري في سائر الأقاليم من أحكام يصدرها القضاة إلى ما يرد بيت المال من أموال كما يطلعهم على أسعار الحاجيات من قمح وحبوب ومأكولات ويقول (فون كريم) : أنه كان على رأس كل مصلحة في الولايات الكبيرة عامل بريد مهمته موافاة الخليفة بجميع الشؤون الهامة بل والإشراف على أعمال الوالي كما كان بعبارة أخرى مندوباً أولته الحكومة المركزية ثقتها فكان الخلفاء يعدون عمال البريد

عوناً لهم في الإشراف على أمور دولتهم وبواسطتهم كانوا يقفون على ولاتهم وسائر رجال دولتهم .

لهذا نرى الخلفاء لا يولون البريد إلا ثقاتهم من أهل التعقل والدراية ، لأنه على ما ينقلون من أخبار تتوقف علاقة الخلفاء بعمالهم ومعاصريهم . وكذلك حدث تطور جديد في مهمات البريد فبعد أن كان خاصاً بأعمال الدولة الرسمية أصبح يستعمل في خدمة الشعب ، وإن كان بشكل محدد . ولم يكتف المسلمون بما وصل إليه نظام البريد البري ، ولكنهم خطوا خطوات واسعة في تنظيمه ونقله بسرعة وصوله واستعملوا في ذلك الحمام الزاجل .

واعتنى خلفاء بني العباس بهذا الحمام وتنافس فيه الرؤساء في العراق وبالعوا في أثمانه . وذكر الثعالبي أن الرسائل كانت تزد في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد وواسط والكوفة والبصرة بواسطة الأطيوار في يوم وليلة . وكان للحمام الزاجل أبراج في القلاع وله عناية خاصة ، كما استعمل المسلمون في المراسلة طريقة أسرع من الحمام وهي بناء المناظر والمناظر كالأبراج العالية على المرتفعات ونقل الإشارات عليها بإشعال النار فينتقل الخبر من منظر إلى أخرى حتى يبلغ المكان المطلوب فكانت النار تستخدم ليلاً والدخان نهاراً .

لقد كان صاحب البريد أشبه برقيب للخليفة فهو عين للخليفة على عماله وسائر رجال دولته . وعين الخلفاء صاحب بريد مع الوزير والقاضي والوالي وصاحب الشرطة فلا يخلو مع أحد إلا وصاحب البريد ثالثهم ، وحدث أن اتفق أبو مسلم مع صاحب بريده حين توجه إلى أبي جعفر المنصور فعندما بعث المنصور كتاباً يسأل القائد الذي عينه أبو مسلم قبيل قدومه على الخليفة — يسأله عن الأموال ويحمله على جلبها له وختم الرسالة بختم أبو مسلم كله فعرف أنه ليس من أبي مسلم لأن أبا مسلم اتفق مع صاحب بريده أو قائد

عسكره أنه سيختم له بنصف الخاتم وقد يرسل البريد على السفن بالبحار أو بواسطة السعاة بالجري .

الحسبة والمحتسب :

تأسست وظيفة الحسبة استناداً على الآية الكريمة من سورة آل عمران قوله تعالى : "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" . ومن أجل ذلك يختار المحتسب ممن درسوا الشريعة وفهموها وتدبروا حكمها فكان قدوة لغيره في رضى الله تعالى مؤدياً لواجباته الدينية مقتدياً برسول الله ﷺ في نظافة البدن والثوب ولين القول طلق الوجه . فهو منصب ديني من قبيل القضاء يحمل الناس على المصلحة العامة في المدن مثل منع المضايقات في الطرق والحمالين وأهل الحيوانات من إكثار الحمل أو إبقائه على ظهور الدواب وهي واقفة مدة طويلة وهو ما تفعله اليوم جمعية الرفق بالحيوان .

ويمنع المحتسب من رمي القمامة في الأسواق والطرق كما يمنع أحمال الحطب من دخول الأسواق ويأمر بكنس الأسواق وتنظيفها وهو ما تفعله اليوم البلديات ، ويلاحظ المباني المتداعية وإزالة ما يحتمل ضرره منها ويمنع إبراز البناء إلى الطريق العام . وللمحتسب الحق في التوبيخ للمذنبين والزجر بالكلام والحبس والنفي والضرب وكان يستخدم السوط والدرّة وهي التي تصنع من جلد البقر وتحشى بنوى التمر لتستعمل أداة للضرب ويضع المحتسب أحياناً على رأس المذنب غطاءً خاصاً من اللبد وينقش بالألوان لتشهير المذنب وتجريسه ويشرف المحتسب على الفرانين وتجار الغلال والدقيق ومراقبة عدم خلط الرديء بالجيد من الغلال ويلاحظ نظافته .

حتى أن المحتسب يراقب الأطباء حتى عده البعض طبيباً، ثم يلاحظ المعلمين ويأمر بعدم ضربهم للصبيان إذا بالغوا في الضرب .

ويراقب المكايل والمقاييس . وكان المحتسب يعين من قبله وكلاء في الأعمال والكور ومجلسه عادة في الجامع . ويتفقد نوابه اللحوم والمطبخات والسقائين من حيث كمية الماء ونظافته .

ويمشي المحتسب عادة في الأسواق أو راكباً ومعه أعوانه فيزن الخبز واللحم حيث يرسل صبيّاً أو جارية لشراء لحم ثم يحاسب من يخالف التسعيرة أو يخسر الميزان . كما أن المحتسب يراقب أهل الذمة في تطبيق شعائهم دون أن يؤثروا على المسلمين .

الجيش :

لم يكن للعرب في جاهليتهم نظام خاص للجند لأنهم كانوا على شكل قبائل متفرقة تنفر كل منها بمكان خاص فإذا اضطرت واحدة من هذه القبائل لقتال قبيلة أخرى استنفرت رجالها فيذهب هؤلاء لقيادة أميرهم أو أشجعهم فيقاتلون بالأسلحة التقليدية (السيف والرمح والقوس) ومعهم نساؤهم وأموالهم ويبدأ القتال بالمناوشة الفردية على طريقة الكر والفر ثم يلتحم الجيشان على شكل غير منظم وبعد انتهاء المعركة يعود أبناء كل قبيلة إلى مساكنهم وينصرفون إلى أعمالهم وكان هدف القتال في ذلك العهد لا يعدو أن يكون أخذاً بثأر أو رغبة في السلب والنهب في معظم حالاته . وبعد ظهور الإسلام تغيرت الحال فحلت الرابطة الدينية محل العصبية القبلية وأصبح القتال دفاعاً عن الدين الجديد وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تحرض على الجهاد وتنظم أسسه وتحدد أهدافه كما تجلت في الوقت نفسه عبقرية الرسول ﷺ والصحابة في القيادة والتنظيم العسكري فابتدأ المسلمون تحت تأثير هذه العوامل

يأخذون شكل الجيش النظامي . وعندما دانت الجزيرة العربية كلا للإسلام أصبح الجيش العربي الإسلامي من القوة بمكان زحف على الشام والعراق ثم فتح مصر وأفريقيا وامتدت الفتوحات الإسلامية في عهد الخليفة الثالث إلى المغرب وإلى أرمينيا وبلاد القفقاس بعد انتهاء فتح فارس وخراسان .

انقسم المسلمون في الأمصار التي فتحوها إلى أجناد كل جند يقيم في محطة خاصة به وكان جند كل محطة ينقسم باعتبار البطون والقبائل فكانت محطة البصرة، مثلاً، تضم خمسة أقسام يقطن كل قسم إحدى القبائل (وهذه القبائل هي : الأزدي، ثميم، بكر، عبد قيس، وأهل العالية) وقد ابتدأ أفراد كل جند بزراعة الأرض التي حولهم لإعانة عوائلهم فاشتغل بعضهم بالتجارة فخشى عمر رضي الله عنه أن يؤثر ارتباطهم بالأرض وانشغالهم بها على قابليتهم للحركة لذا حرم عليهم مزاوله أية حرفة وعوضهم بعطاء ثابت يصرف لهم من بيت المال فأسس ديوان الجند لهذا الغرض، وبذا فإن الجيش أصبح يتكون من :

١ - المرتزقة، وهم الذين اتخذوا الجندية مهنة دائمة لهم .

٢ - المتطوعة، وهم الغير مسجلين في الديوان، وهؤلاء يشتركون في الجيش وقت الحرب فقط ثم يسرحون وقت السلم ليزاولوا أعمالهم الخاصة .

ولما أتى الأمويون للحكم توسعوا في الغزو والفتوحات توسعاً كبيراً مما استدعى زيادة عدد الجند بصورة كبيرة فكان عدد المراكبة في البصرة فقط ٨٠,٠٠٠ والكوفة ٦٠,٠٠٠، بينما كان يقدر الجيش الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب بـ ١٥٠,٠٠٠ مدونين في الديوان، وقد سار الأمويون على خطة عمر في تنظيم الجند إلا أنه بعد الفتنة والحروب الداخلية التي أعقبت مقتل عثمان (٣٥ هـ) وبعد أن أصبح القتال دفاعاً عن الرأي بين المسلمين أنفسهم أصبح المدعوون إلى القتال يتهيبون الاقتتال مع إخوانهم في الدين والعروبة مما جعل الأمويين يأخذون بالتجنيد الإلزامي وأول من نقل ذلك الحجاج بن يوسف

الثقفي . وظل الجيش الإسلامي في هذا العهد كالعهد الذي سبقه عربياً محضاً حتى توسع الأمويون في فتح شمال أفريقيا فانضم إليه أعداد كبيرة من البربر خاصة عند فتح الأندلس .

الجيش في العهد العباسي :

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس لذا كان طبيعياً أن يشغل الفرس نسبة عالية من الجيش الإسلامي في هذا العهد إلا أن هذا لا يعني اختفاء العنصر العربي منذ البداية ففي زمن المنصور كانت فرق الجيش أربعاً هي اليمانية والمضرية والربيعية والخراسانية . وتغيير آخر، فقد كان الجند في عهد الراشدين يسجلون حسب السابقة، وفي عهد بني أمية حسب النسب ولكن في هذا العهد، ولما كثر الموالي في الجيش صاروا يسجلون حسب الجنس (خراساني، أهوازي، طبرستاني . . الخ) .

ولما ولي المعتصم الخلافة سنة ٢١٨هـ كانت فرق الجند هي :

الأعاجم : من أهالي خراسان وفارس وكرمان ومكران وسجستان وغيرهم .

المغاربة : من أهالي مصر وما يليها غرباً .

الترك : من السند وفرغانة وسمرقند .

الحربية : من العرب .

المتطوعة : وهم الذين ينضمون إلى الجيش في حالات الحرب فقط .

وكانت أقوى الفرق هي الأعاجم فأراد الحد من خطرهم ف قرب الأتراك (أمة تركية) فشغب عليه العجم فبنى مدينة (سامراء) ونقلهم إليها وبعد المعتصم أصبحت فرق الجيش العباسي متباينة المبدأ واللغة والوطن وأهم هذه الفرق : الشاكرية، الساجية، السعدية، الهارونية، الصلاحية، الأسدية، البلالية، والنظامية وغيرها، وقد أخذت كل فرقة تستعمل نفوذها في الدولة لكي تصل إلى مآربها حتى أصبح في أيدي هؤلاء الموالي أمر تولية الخليفة وعزله وكان هذا من أسباب ضعف الدولة العباسية ثم سقوطها .

تطور نظام القتال عند المسلمين :

في بداية عهد الإسلام سار الجيش على ما كان متبعاً عند العرب في الجاهلية وهو نظام الكر والفر وحمل النساء والأطفال والأموال معهم لساحة المعركة ولما كان لهذا النوع من التنظيم من مساوئ فقد أخذوا بنظام الصف عملاً بقوله تعالى "إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص" فابتدأ المسلمون بتطبيق هذا النظام ونبت نظام الكر والفر منذ وقعة بدر سنة ٢ للهجرة وحتى أواسط عهد الراشدين ولتطبيق هذا النظام كان الرسول ﷺ يأمر جنده بأن يجتمعوا في صفين أو ثلاثة كصفوف الصلاة فكان في الصف الأول حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان ثم يليهم حاملو السهام، والسيوف في الصفين الثاني والثالث ويقف الفرسان على يمينة الجيش ويميسرته فإذا التقى الجيشان بعد عدد من المناوشات الفردية زحفت صفوف المسلمين واصطدمت بالعدو بدون كر ولا فر، لذا سمي هذا النظام أيضاً باسم (نظام الزحف) .

وفي أثناء الحرب مع الفرس والروم في العراق والشام لاحظ خالد بن الوليد أنه كلما زاد عدد المسلمين في الجيش كلما ازدادت بالتالي صعوبة السيطرة عليهم في القتال حسب نظام الصف مما رأى معه ضرورة إيجاد نظام بديل يكفل السيطرة على الجيش وتماسكه في وجه عدو عريق في فن الحرب والتكتيك فأخذ بنظام التعبئة الذي كان متبعاً لدى الروم وهو أن ينقسم الجيش إلى خمس فرق هي : المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب، وكل فرقة من هذه الفرق مقسمة إلى كراديس ولها أمير يأتمر بأمر القائد الأعلى . واستمر أسلوب القتال يتراوح بين الصف والتعبئة إلى أن عمد إلى قتال التعبئة بعد قيام الدولة العباسية .

أسلحة الجيش :

كانت الدولة تنح في تموين الجند / إمدادهم بما يحتاجون إليه من المؤن والأسلحة، وكان الجيش يتألف من الفرسان والرجالة، فكان الفرسان يتسلحون بالدروع والسيوف والرماح، والرجالة يتسلحون بالدروع والحراب والقسي والسهام، والعرب لهم مهارة فائقة في استخدام السهام لحدة أبصارهم في الرمي بالقوس . وكان الرسول ﷺ يقول : "أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ألا أن القوة الرمي" وكررها ثلاثاً . وكان الرماة أهم عناصر الرجالة في الجيش وكذلك كان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلة بريش النسور . ومما لاشك فيه أنه كان لاختلاط العرب بالفرس والروم أثر في تحسين أنواع الأسلحة، هذا فضلاً عما يمتاز به العربي من الخفة والسرعة في الحركة والصبر وتحمل الشدائد والحمية وبذل النفس رخيصة في سبيل الواجب . هذا ولم يقتصر المسلمون على استعمال آلات الحرب الخفيفة التي أشرنا إليها وإنما

استعملوا أسلحة ثقيلة كان لها دور بارز في إحراز النصر على الأعداء ورفع راية الإسلام عالية في معظم أصقاع العالم القديم وأهم هذه الأسلحة :

المنجنيق :

كان المنجنيق في أول الأمر عبارة عن قاعدة من الخشب السميك مربعة أو مستطيلة يرتفع في وسطها عمود خشبي قوي يركب في أعلاه ذراع المنجنيق قابل للحركة كذراع الشادوف يتدلى منه صندوق خشبي مملوء بالرصاص والحجارة والحديد أو نحوها وفي طرفه الآخر شبكة من الحبال القوية يوضع فيها الحجر المراد قذفه ، وما زال المسلمون يدخلون التحسينات عليه حتى صار أحد الأسلحة الثقيلة التي لا يستغني عنها الجيش خاصة في حصار المدن وفتح الأسوار وأمسى في العصر الأموي يجبر بقوة الرجال على الزحافات ثم نرى فيه الكتل الصخرية والأخشاب المشتعلة وصار هذا السلاح الرهيب في العصر العباسي مدمراً لا يبقى ولا يذر منذ قذفوا منه قذائف النفط واستخدموا فيه نار الإغريق . والجدير ذكره أن معظم المؤرخين يذكرون أن المنجنيق استعمل منذ عهد الرسول ﷺ في غزوة خيبر وحصار الطائف .

الضبور (الضبر) (الدبابة) :

واستخدم الضبور التي تتم عمل المنجنيق في حصار الأسوار والحصون ، والضبر جلد يغطي خشباً فيه رجال تقترب إلى الحصون للقتال وقد سميت دبابة لأنها تدب دبياً في سيرها ، وقد تعلم المسلمون صناعتها منذ القرن الأول الهجري ولم تكن حينئذ ضخمة الحجم ولا كثيرة العجلات ثم وسعوها حتى باتت تتسع لعشرة جنود وتجر على ثماني عجلات وبداخلها سلالم تنتهي إلى شرفات الحصن يصعد الرجال في أعلاها وينتقلون منها إلى شرفات السور .

رأس الكبش :

وعرف المسلمون في عمليات الحصار سلاحاً حديدياً ثقيلاً سموه رأس الكبش لأن له صورة الكبش بقرونه وجبهته ويركب هذا الرأس الحديدي داخل برج خشبي ثم يتدلى من سطح البرج محمولاً بسلاالم تربطه في موضعين يصدمون به الأسوار ويعملون على ثقبها وهدمها مستعينين على ذلك بسلاالم الحصار كما فعل خالد بن الوليد يوم فتح أسوار دمشق .

وكذلك استعملوا الحسك الشائك وهو بمثابة الأسلاك الشائكة في عصرنا الراهن لصد العدو وعرقلة سيره خاصة بعد أن طعم بالسم كما صار لهم قدرة على حفر الخنادق في حالة الدفاع وطمرها وعبورها أثناء الهجوم .

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند في أوائل عهد الدولة العباسية وخاصة في عهد المنصور الذي اهتم اهتماماً كبيراً بالمسائل الحربية وكان يستعرض الجند وهو جالس على عرشه لابساً خوذته . وكانت الجيوش تصف أمامه في ثلاثة أقسام عرب الشمال وعرب الجنوب والخراسانيون ولما ولي المتوكل أمر بتغيير زي الجند القديم وألبسهم ملابس رمادية وأمرهم ألا يحملوا السيوف على أعناقهم بل يضعونها في مناطق حول وسطهم . وكان نظام الجاسوسية عند العباسيين متبعاً وكانوا يستخدمون الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة متنكرين في أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار ونقلها لدولتهم .

الأسطول :

الأسطول كلمة معربة عن الكلمة اليونانية Stolos ومعناها طائفة من السفن . كان لفشل حملة العلاء الحضرمي البحرية على فارس أثر في موقف

عمر بن الخطاب ؓ من ركوب المسلمين للبحر فقد رفض بحزم طلب معاوية بن أبي سفيان والي الشام بتكوين أسطول عربي إسلامي لدرء الخطر البحري البيزنطي ومجابهته بمثل سلاحه بل ومنع عمرو بن العاص من اتخاذ الإسكندرية عاصمة له لأن الماء (النيل) يفصلها عن بر المسلمين وإن كان فشل حملة العلاء سبباً مباشراً وعارضاً فإن السبب الأهم والأعمق هو أن عرب الحجاز بالذات كانوا على جهل يكاد يكون تاماً بالبحر وركوبه .

أما الخليفة الثالث عثمان بن عفان ؓ فلم يكن أقل من سلفه تهيئاً وحذراً من البحر فقد رفض السماح لمعاوية بغزو قبرص ولكن معاوية في النهاية أقنعه بإمكانية ذلك وأنه لا خطر على المسلمين منه فسمح له على أن يكون جميع رجال الحملة من المتطوعين اختياراً لهذه المهمة فاستطاع معاوية بأسطوله الناشئ أن يفرض على قبرص صلحاً تدفع بموجبه ٧,٢٠٠ دينار سنوياً سنة ٢٩ هـ وفي سنة ٣١ وقبل سنة ٣٤ هـ التقى الأسطول الإسلامي من مصر وسوريا المكون من ٢٠٠ سفينة بالأسطول البيزنطي المكون من ٥٠٠ سفينة والذي جاء محاولاً استرجاع مصر من المسلمين فنشبت بين الأسطولين معركة غير متكافئة من حيث الكم ولا من حيث التمرس في فنون المناورات البحرية ولكن الإيمان والشجاعة قلبت المقاييس وحققت النصر الأول للعرب في البحر على الروم في معركتهم هذه التي سميت ذات الصواري ومن ثم صارت الدولة الإسلامية منذ عهد عثمان ؓ دولة بحرية بما استولت عليه من سفن الروم وبما استخدمه معاوية وعبد الله بن سعد من السفن ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحملات البحرية تتوالى على بلاد الروم فرتب معاوية الغزو عليها صيفاً وشتاءً، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يفتحوا جزر بحر الروم (الأبيض المتوسط) مثل رودس التي كان بها دار لصناعة السفن وسردينيا وصقلية ومالطة

وكريت وغيرها حتى أصبحت السيادة في هذا البحر للمسلمين . يقول آدمتز : ولم يكن لأوروبا سلطان على البحر المتوسط خلال القرن العاشر الميلادي فقد كان بحراً عربياً لا بد لمن يريد أن يقضي لنفسه أمراً أن يخطب ود العرب كما فعلت نابلي، ويظهر أن الملاحة الأوروبية نفسها كانت في ذلك العصر على حال يرثى له من الضعف .

وقد أنشئ أول مصنع لصناعة السفن في مصر أثناء ولاية مسلمة بن خالد سنة ٥٤هـ أطلق عليه "دار الصناعة" ثم أنشئ في عهد عبد الملك بن مروان مصنع مماثل في تونس وسار الخلفاء الأمويون على تشجيع صناعة السفن فتأسست دور جديدة في بيروت وعكا وصور . وكانت هذه السفن تصنع من خشب الأرز الذي يحمل من جبال لبنان أو من الأناضول على ساحل البحر المتوسط . وكانت أهم أنواع السفن ثلاثة : الشونة : وهي مراكب كبيرة يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع وتتسع لمائة وخمسين رجلاً ولها مائة مجداف، والحراق : لحمل المنجنيقات يرمى بها النفط المشتعل على الأعداء، والطرادة : وهي سفينة صغيرة سريعة الجري .

وكان لكل أسطول قائد ورئيس ونواتية، فالقائد يدير أمر حربه وسلاحه ومقاتلته والرئيس يدير أمر جريه بالريح أو بالمجاديف وأمر إرسائه في مرفئه والنواتية يعملون بأمر الرئيس . وإذا ضمت عدة أساطيل ولوا عليها أميراً يطلق عليه أمير البحر ومن هذا اللفظ أخذ Admiral الإفرنجي .

النظام المالي :

كانت موارد بيت المال هي : الخراج والجزية والعشور والزكاة والفيء والغنيمة .

١ - الخراج

لفظ أرمني ويعني ما يوضع على الأرض المفتوحة عنوة أو صلحاً من مال أو حاصلات، وقد تبقى الأرض بيد أهلها وهم يدفعون عنها خراجاً كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . وكان يؤخذ على كل جريب من الكروم عشرة دراهم ومن الحنطة أربعة دراهم، هذا في العراق بينما عمل في الشام على غير هذا وقسمت الأرض التي لا يفرض عليها خراج إلى الأرض التي أسلم أهلها بدون حرب فيدفعون عنها عشر الزكاة وأرض ملكها المسلمون عنوة فقسمها الخليفة على الفاتحين وتعتبر عشراً ليس عليها خراج أيضاً وأرض أخذت من المشركين عنوة فأصبحت غنيمة تقسم بين الفاتحين فيملكونها ويدفعون عنها العشر من غلتها فهي أرض عشر وليس عليها خراج .

وظل ذلك إلى العهد العباسي حيث أن المنصور عدل إلى المقاسمة إذا زادت الغلة زاد الخراج وتقدير المقاسمة مفوض إلى الخليفة ولا يزيد على نصف الغلة ولا تقل عن خمسها لذا فلم يكن الخراج إيراداً ثابتاً للدولة إذ تعتمد على الاهتمام والصرف على المشاريع العامة كتعمير الجسور والطرق والري أما الجزية فتعتمد على دخول غير المسلمين في الإسلام .

وكان الخلفاء يعينون عمالاً مستقلين عن الولاة لجباية الخراج لدفع أرزاق الجند والمصالح العامة ويرسلون الباقي إلى بيت المال ويشترط في عامل الخراج أن يكون فقيهاً عالماً عفيفاً مشاوراً لأهل الرأي لا يخاف في الله لومة لائم ولا جور حاكم .

وكان الخراج يدفع عيناً على الأكثر في عهد الراشدين . واهتم الراشدون بالري والسدود وتخفيض الضريبة إذا قل المحصول لسبب من الأسباب .

وكان نظام جمع الخراج على نوعين : (المقاسمة) ويشرف عليها الخلفاء ويحاسبون عمالهم بأنفسهم . . . و(الالتزام) أو الإقطاع وهو أن يتعهد شخص بدفع مال كل سنة كخراج عن إقليم أو قرية ويقوم هو بجمع خراجها وقد بلغ خراج مصر بعد فتحها بنسبة إردبين في كل مائة إردب ولم يخل نظام الالتزام من عيوب إذ كثيراً ما يلتزم الناس بدفع أموال أو محصول أكبر .

٢ - الجزية :

لفظ يوناني أو فارسي وهو (كزيت) ومعناه المال الذي يستعان به على الحرب أو أن كلمة جزية من جزاء به أو عليه (أي كافأه) وهو مبلغ من المال على الرؤوس ويسقط بالإسلام . وقد ثبتت الجزية في القرآن الكريم من قوله تعالى : "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" . والفرق بين الجزية والخراج أن الخراج يجبى على الأرض ولا يسقط بالإسلام، وثبت بالاجتهاد . والجزية قديمة فرضها الإغريق والرومان والفرس وكانت سبعة أمثال الجزية التي وضعها المسلمون .

وفي عهد الرسول ﷺ وأبو بكر كانت الجزية غير محدودة إذ ترك أمر تقديرها لهما حسب ظروف الأحوال وبالتراضي مع أهل الجزية . أما في عهد عمر فقد رأى تحديد قيمتها حسب درجات الناس ومقدرتهم فأصبحت ٤٨ درهماً على الأغنياء و٢٤ درهماً على متوسطي الحال و١٢ درهماً على الفقراء

الذين يستطيعون الكسب . واتفق عمرو بن العاص مع أهل مصر من أهل الكتاب على دفع دينارين عن كل حالم من الرجال ، وفرضت الجزية على أهل الكتاب كما فرضت الزكاة على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان لأنهما رعية لدولة واحدة . وتسقط الجزية عن أسلم ووجببت الجزية على الرجال الأحرار الأصحاء القادرين على الدفع وليس على مسكين يُتصدق عليه أو لا يستطيع العمل أو الأعمى أو المقعد أو المجنون ولا المترهبين في الأديرة والصوامع كلهم ليس عليهم جزية .

لذا فالجزية على من يجب عليهم الجهاد من أهل الذمة فأعفوهم من الجهاد مقابل الجزية . لأن المسلمين يكفون عنهم الأعداء ويحمونهم وأموالهم وعباداتهم فيصبحوا آمنين محروسين .

وجدير بالذكر أن معاملة المسلمين في صدر الإسلام مع أهل الكتاب تمتاز بروح العدل حسب ما جاء به النبي ﷺ وطبقه قادة الإسلام .

ولا تقبل الجزية من عبدة الأوثان ولا المرتدين من العرب لأنهم يخبرون بين الإسلام والسيوف لتوحيد العرب تحت راية واحدة . وفرضت الجزية على أهل الذمة وقبلت من هجر ومجوس العراق .

ويحكى أن الحجاج فرض الجزية على من أسلم من أهل الذمة في عهد عبد الملك بن مروان وأبطلها عمر بن عبد العزيز ولم توضع بعده على مسلم .

هكذا عامل المسلمون الذميين بعدالة وفق ما أمر به الرسول ﷺ من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . هذه شريعة رب السماء . شريعة الإسلام السمحاء مع أهل الكتاب وهذه من عوامل انتشار الإسلام .

٣ - العشور والزكاة :

تفرض العشور على حمولة السفن حين مرورها من إقليم إلى آخر وعلى ثمن المتاجر وهي تشبه الضرائب الجمركية اليوم وقد فرضت أيام عمر رضي الله عنه لانشغال الدولة قبله بنشر عقيدة الإسلام والقضاء على الردة والمحافظة على حدود الدولة، ولما اتسعت الدولة واستتب فيها الأمن والنظام نشطت التجارة فأخذ من التجار غير المسلمين مثل ما يأخذون من تجار المسلمين وعلى من يتجر مع المسلمين من أهل الحرب في بلاد المسلمين فعليهم العشر . وهي المعاملة بالمثل وإن كان المسلمون أكثر تسامحاً في فرض هذه الضريبة .

٤ - أما الزكاة :

فهو المال الذي يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع على فقرائهم وتجبى في كل سنة وتوزع على ثمانية هم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى : "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب (تعتق وولاؤها للمسلمين) والغارمين (ركبهم الدين وليس عندهم ما يوفون به) وفي سبيل الله والغزاة وابن السبيل (الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده . . .) .

٥ - الفئ والغنيمة :

الفئ هو كل مال وصل من المشركين للمسلمين عنوة من غير قتال ويقسم الفئ على خمسة أسهم : سهم رسول الله ﷺ، وأما أربعة أخماس الفئ

فكانت تقسم في صدر الإسلام بين الجند في الأعمال الحربية حتى دونت
فقدرت أرزاق الجند .

٦ - الغنائم :

أما الغنائم فهي كل ما كان مع الأعداء في ميدان المعركة وهي صائرة
للمسلمين بعد أن تنجلي الحرب ويتحقق النصر حيث يقسمها الخليفة بين
الأصول الخمسة على خمسة أسهم وهم من ذكروا في قوله تعالى (واعلموا أن ما
غنمتم من شيء فإن لله خمسة والرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن
السبيل) ثم أربعة الأخماس ملك للقائمين ممن حضروا الحرب ومن كانوا رد
لهم . وكانت موارد بيت المال تصرف على رواتب القضاة والولاة والعمال
وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين وأرزاق الجند والنفقة على المسجونين
والأسرى وشراء المعدات الحربية وكري الترع والعطايا والمنح للعلماء والأدباء
وفرض لكل مسلم دون اسمه في الديوان رواتب سنوية (أعطية) لقاء خدماته
الحربية لا فرق بين العرب والموالي، وقد عمل به في عهد الراشدين والأمويين
خاصة عمر بن عبد العزيز الذي ساوى بين المسلمين والموالي والعرب في
الأعطيات دون أن تكون ملكية الأرض للجند، كي لا ينشغلوا بالزراعة عن
الفتوح .

دكتور علي أباحسين